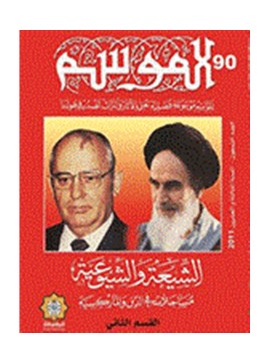
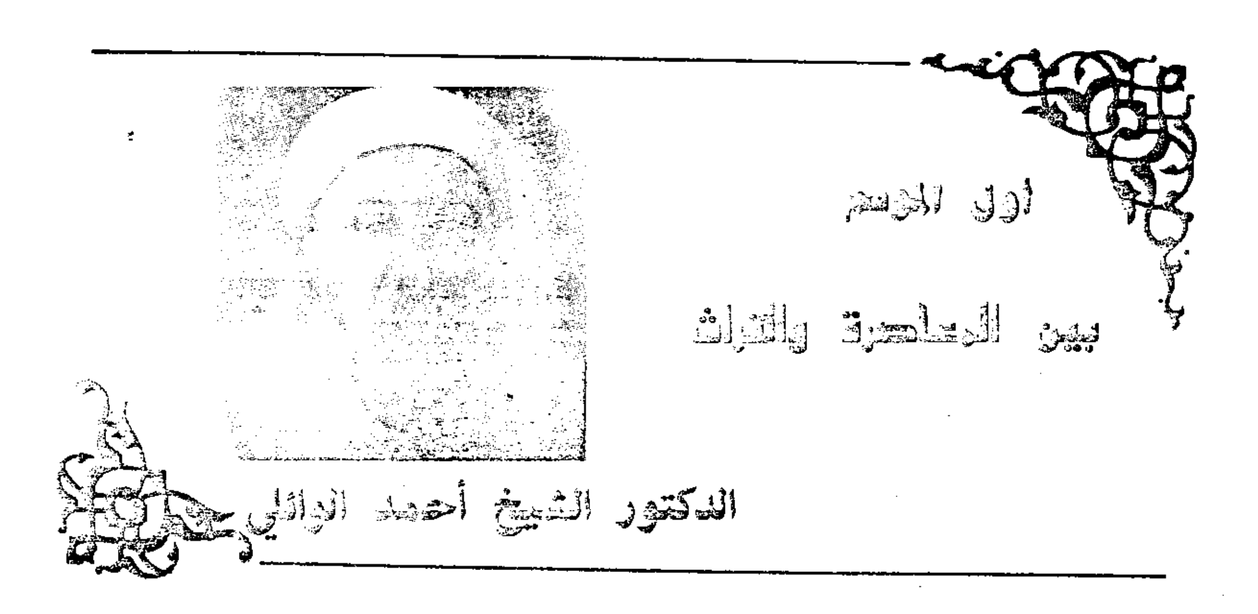


أول الموسم بين المعاصرة و التراث

پدیدآورنده (ها) : الوائلی، أحمد

تاریخ :: نشریه الموسم :: السنة ۱۴۰۹ - العدد ۶

۳۷۳ تا ۳۷۶



أول الموسم

بين المعاصرة والتراث

الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

يتبادر للذهن من كلمة التراث المضمون الفكري في أبعاده المختلفة مما أنتجته قرائح وفهوم الأجيال السالفة للجيل المعاصر وهو بذلك جزءٌ من حضارة الأمّة ، والتراث لغةً مايُخلّفه الرجل لورثته والتاء فيه بدلَ الواو لأن أصله وارث فهو إذن ما يرثه الإنسان من الأمور المادية ممن سبقه .

يقول سعد بن ناشد :

فإن تهدموا بالغدر داري فإنها   تراثُ كريمٍ لايبالي العواقبا

ويقول الشريف الرضي مخاطباً العباسيين :

ردّوا تراث محمد ردّوا   ليس القضيبُ لكم ولا البردُ
هل أنجبت فيكم كفاطمةٍ   أم هل لكم كمحمدٍ جَدُّ

ويقول الكميت :

يقولون لم يُورث ولولا تراثُه   إذن شركت فيه بجيلٌ وأرحَبُ

وعلى العموم فالتراث ما يرثه الإنسان من أمورٍ مادية اما إطلاقُه على الأمور غير المادية نهو مجاز وتوسّع ، وقد أصبح كما أسلفنا يتبادر منه للذهن الجانب الفكري والإجتماعي الذي ينتقل من السلف إلى الخلف ومنذ وقت ليس بالقصير يدور نزاع بين طرائف من الناس ومفادُ ذلك النزاع هل نبقى متمسكين بالتراث وبذلك ننتقل إلى الوراء ؟ أو نتحجَّر كما يقول البعض ونرجع لما سلف ؟ وفي ذلك ظلم للمعاصرة وتخلف عن الركب الصاعد وحرمان للأمّة من الجدّة والإبتكار !

أم ننبذ التراث ونحلق ونتجرّد لنخلق ونبدع ونسايرَ التطور ؟

ومن البداهة أن كلا القولين على الإطلاق غير سديد . فالتمسك بكل قديم ونبذ الجديد لا شك أنه تخلف ، والإعراض عن التقدم والإقتصار على الجديد خنق للجذور ، ومجافاة

للأصالة وضياع وتيه فإن مَنْ لا قديم له لا جديدَ له هذا بالإضافة إلى أن ذلك أمرٌ غير ممكن لأن القديم مختزَن في وعينا وأفكارنا نصدرُ عنه أو عن قسمٍ منه على الأقل صدوراً آلياً لا سبيل للتخلص منه هذا بالإضافة إلى أمور أخرى منها :

أولاً ـ أنه ليس بالضرورة أن كل جديد خيرٌ من القديم فربَّ قديم أكثر روعة وأهم من الجديد .

ثانياً ـ أن القديمَ أساسٌ للجديد وما لا أُسَّ له فمهدوم .

ثالثاً ـ أن القديم مرحلة من المراحل ولا يستطيعُ الإنسان أن يبدع دون قطع هذه المرحلة فما كان الإبداع يوماً من الأيّام طفرة وقد قامت الدنيا على مراحل في عطائها فالتطور صعود والصعود إلى السطح لا بد معه من المرور على السلالم الدنيا .

رابعاً ـ إن الإبداع الجديد مدين للقديم بالحفز والدفع ومضاعفةَ الجهد لإحراز التفوق فإن ذوي الماضي العريق يحملون في نفوسهم نزوعاً لمواصلة المجد ، وربط آخر المسيرة بأولها بما هو أروع . يضاف لذلك كله أن للماضي في النفوس مكانة ولعلها ناتجة من كون الماضي أم والإنسان يحنُّ لأمه وهكذا . أما الجديد ففيه نوعان :

(نوع) لا تجد فيه ما يستحق أن يُوصف بالجدّة سوى السطوح وكأنه صنعته محاولة مستعجلة لمجرد التغيير والخروج عن إطار القديم بدون إبداع في المضمون ولا إضافة جديدة للمحتوى ، ومثل هذا لا يستحق أن يوقَف عنده لأنه في الواقع ليس إلاّ معالجة للإطار دون المحتوى .

أما (النوع الثاني) فهو إضافة جديدة مرت بعطاء سابق فزادته ثروة ، وأضافت له بريقاً ، أو كثّفت فيه طعماً وأشربته سمات المعاصرة ، وبذلك صعدت به عن التراث وإجتازت الحدّ الفاصل بينهما ، ذلك الذي ينبغي أن يُوقف عنده والذي يُطلق عليه الجديد بجدارة . وأنت ترى أن ما صنعه الجديد هنا لم ينْسَخ ما أصَّله القديم بل ظلَّ للقديم مكانة الأمومة من البُنوّة ودعني اضرب لك أمثلة تطبيقية وتقريبية فيما مرَّ من نظريات مع أخذ الفروق في الإعتبار في المقام والشخصيات .

فلنأخذ المسألة الإقتصادية التي نلخصها بقولنا أنها كثرة في الإنتاج وسوءٌ في التوزيع فقد تناولها تراثنا بما يلي :

قال الإمام علي عليه السلام : والله ما جاعَ فقير إلاّ بما مُتّع به غني والله سائلهم عن ذلك . وقال برنارد شو ـ الفيلسوف الإنكليزي ـ وكان شعرُ رأسه وشعر خديه غير منسجم فهو أحصّ في جوانب ومكثف في جوانب أخرى ، قال : العالم بين رأسي ولحيتي كثرة في الإنتاج

وسوء في التوزيع . فالقولان في مضمون واحد ويبقى للقول الأول متانته وقدرتُه على التلخبص والإختصار وايقاعُه ورونقُه التعبيري والتراث هنا أبلغ من الجديد .

ولنأخذ مثلاً آخر في لفتة شاعرية رقيقة . يقول عنها تراثنا القديم قبل ألف ومائتي سنة تقريباً وهو يتغزل بإمرأة رقيقة ، يقول :

توهمها طرفي فألَمَ خدَّها فكان مكان الوهم من نظري إثْرُ
وصافحها كفى فألَم كفَّها فمن لمس كفي في أناملها عُقرُ
ومرَّت بقلبي خاطراً فجرحْتُها ولم أرَ شيئاً قط يجرحه الفكرُ

وفي المعنى بالذات يقول شاعر معاصر :

وَجَناتُها رقَّت وكِدنَ لطافةً من رقةٍ يُدمَيْنَ بالإيماء

والجديد هنا اختصرَ ما أطال به القديم وأدى نفسَ الغرض مع أن هذا وذاك انصبّا على وصف حالة معينة ولا يفوتُنا جدّة الألفاظ في المعاصر فهي أجدُّ مما تناوله بها القديم .

ويقول تراثنا في مقام حرمة حياة الإنسان كما ورد في الحديث النبوي الشريف : «من قتلَ عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة إلى الله تشخب أوداجه دماً عبيطاً يقول أيْ رَبْ سَلْ هذا فيم قتلني . لم ينتفع بلحمي ولم يتركني آكل من خشاش الأرض» . ويقول الحديث أيضاً «لئن تزول السماوات والأرض أهون على الله من نقطة دمٍ حرام تُسفك» . ويقول بند من بنود حقوق الإنسان في هيئة الأمم المتحدة «لكل أحدٍ الحق في الحياة والحرية والأمن» وقد إنطلق الإثنان من موضوع واحد وهو حق الإنسان في أن يحيا - وأن يحترم دَمُه وبقيت للتراث ميزة القداسة والرقّة الروحية وثبتت للمعاصرة مجرد حداثة اللفظ وهكذا .

وإذا شئت أن تنتقل إلى الجانب المادي من الحضارة مما إلتصق بالمعاصرة فما أعطتنا الحضارة شيئاً لم تأخذ مقابله منا فإذا كنا نستعمل في دنيا الطاقة سابقاً الحطب في طهي طعامنا رجاءت المعاصرة لتستعمل طبّاخ الغاز والكهرباء فإنها بالوقت ذاته أخذت منّا الأمان في إستخدام الوسيلة البدائية ولفّتنا بأخطار الغاز والكهرباء اللذين سجلا أكثر من مأساة ومأساة وحرمتنا مما كانت الطبيعة تجود به مجاناً لتحملنا عناء تكلفة جهاز ليس من الميسور حصولنا عليه وفي الوقت ذاته حرمتنا من نكهة في الطعم أخذتها وسائل الطبخ الحديثة ولستُ بذلك أدعو لنبذ الحديث والإقتصار على القديم ولكني أريد أن أتمم كلّاً من التراث والحديث .

وإذا كانت السيارةُ مثلاً إختصرت لنا المسافات وجنّبتنا وعثاء السفر وقصّرت لنا طول المدة التي كنّا نقضيها على ظهور الخيل فهي في الوقت ذاته وضعتنا في سلسلة من الحوادث غير المترتبة

والمصارع المتوالية من السيارات كما أنها أضعفت فينا مناعة ومهارة كان أسلافُنا يجنونها من ركوب الخيل وحوّلتنا إلى كيانات رخوة لا تصمدُ أمام الصعاب .

وعلى ضوء ما تقدم يتضح مدى حاجتنا إلى كل من التراث والمعاصرة جمعاً بين الإنطلاق من أصالة ما تقدم والأخذ من جدة ما جدّ وإنسجاماً مع إرتباطنا بزمننا ومسايرة ركب التطور في الحياة وليبقى بعد ذلك لنا هويتنا الواضحة فيما نرتبط به من جذور حفاظاً على شخصيتنا وإعتزازاً بما أسلفنا من بناء في سلّم الحضارة وما أسهمنا به من جهد مع المجموعة الإنسانية في سبيل التقدم والإزدهار والرخاء .

الجيل وهو وديعة فاستنقذوا شرف الوديعة لايُخان ويُسرق
غذوهُ خير قديمه وحديثه وضعوا خطاه على الهدى وترفقوا
اني رأيت النبت يُغرس في الثرى جذراً ويتلع للشعاع فيورق

وليكن نظرنا موزعاً بين تراث كريم نفتخر به ونشدّ أنفسنا إليه ومستقبلٍ كريم نتوق إليه ونسعى للإسهام في جديده وبذلك لا نتحجر على ما مضى ولا نذوب فيما جدّ بل يبقى لنا كياننا المتميّز ، والله الموفق .

